

## الفنان والاعتراب

ينفق الفلاسفة على أن الانسان مشكلة فهو لا يستطيع أن يتقبل وجوده، بل يسائل نفسه ويضع وجوده دائماً موضع الاستفهام والبحث، ثم كيف لا يكون الانسان مشكلة وهو الكائن الذي يتسم وجوده بالاعتراب .. الشر .. القلق والعدم. فمنذ تلك اللحظة كان الاعتراب مصاحباً للانسان ، بشكل متفاوت، والاعتراب شعور طبيعي لدى كل من يفكر ويتأمل و كل من يخرج من دائرة الاهتمامات اليومية ، وكوني مهتمه بطرح كل ما من شأنه ان يمس الفن والفنان على الصعيد الشخصي، ارى في اعتراب الفنان مادم مهمه للبحث و الطرح، فمما لاشك فيه ما دفعني الى التطرق الى هذا " الاعتراب" هو بالفعل شعورنا بالاعتراب.

قرأت في كتاب " الاعتراب والابداع الفني للدكتور محمد عباس يوسف"، عن مفاهيم مختلفة للإعتراب، ففي كتابات ( هيجل) - باعتبارها اول من قام بالبحث الفلسفي لمفهوم الاعتراب- وجدناه يربط بين اغتراب الذات والثقافة، فالفرد يجب ان يعارض ذاته اولا لتحصل تلك الذات على حقيقتها الكلية، لذلك يتولد الشعور بالاعتراب. اما ( ماركس) فقد وضع الاعتراب في اطار اجتماعي اكثر تحديداً، فنظر الى الاعتراب باعتبارها اثر سلبي للتنظيم الكامن في الحياة الاجتماعية وعلاقات الانتاج غير السوية، فالعامل في ظل الحضارة الصناعية الحديثة يغترب عن ناتج عمله الذي يذهب لحساب الآخر المستغل. أما ( فرويد) يرى تعارضا بين الانسان والحضارة، فالحضارة تأسست بفضل جهود الانسان دفاعا عن ذاته، دفاعا ضد عدوان الطبيعة و مخاطرها، لكن الحضارة جاءت على نحو يتعارض و تحقيق أهداف الفرد و رغباته، وهذا التعارض هو الذي يولد الاحساس بعدم الرضا والاعتراب عن الذات.

إذا صح القول ان المغتربين مبدعون فإن سمة الابداع يمكن ان تساعد المغترب على ان يتجاوز اغترابه، فقد ثبت من خلال العديد من الدراسات وجدو ارتباط موجب بين سمات التفكير الابتكاري والقدرة على اتخاذ القرار. والحقيقة ان اغتراب الانسان المعاصر جعل حاجتنا الى الفن اليوم اكثر من حاجتنا اليه في اي وقت مضى، فالفن هو شكلا ضروريا من اشكال المصالحة مع الذات والواقع. فقد كان (هيجل) ينظر الى الفن على انه محاولة للقضاء على اغتراب الانسان ، فالانسان في الفن يضاعف نفسه كي يرى ذاته الحقيقية تأخذ موضعها في عمل خارجي يتيح للإنسان ان يسلب العالم الخارجي من غرْبته ويتمتع في شكل الاشياء وينسجها بحقيقة خارجية عن نفسه.

والفن باعتبارها تعبيراً عن الحرية والانسانية وتحقيق الذات هو وحده القوة الكفيلة بالقضاء على حالة الاعتراب، الا ان الفنان عندما يجد ذاته في عمله الفني، هذا العمل الذي يرى الفنان فيه صورة ذاته ، سرعان ما يفنق هذه الصورة فينسحب منه و يغترب عنه، ولا خلاص من ذلك الاعتراب الا بعمل جديد يتيح له ان يخرج من انسحابه الى دنيا الواقع والناس ، ليجد ذاته من جديد في عمله الجديد. والفنان بهذا المعنى لن يتخلص من هذا الشعور بالاعتراب بما ان هناك فجوة بين ما هو عليه الآن وبين ما ينبغي ان يكون عليه. ولكنه اغتراب مؤقت ذو خاصية ايجابية تدفع الى الحركة والفعل الابداعي المستمر.

من هنا لا بد ان نتطرق الى معنى الاعتراب، فقد اختلف مفهوم الاعتراب عن معناه الاصطلاحي من حيث مفاهيمه الاستخدامية، فقد تم تفسيره اصطلاحياً على ان له ثلاثة استخدامات، الاول (بمعنى نقل الملكية .. وهذا يعني جعل شيء ما منتمياً الى شخص آخر) والاستخدام الثاني (بمعنى الاضطراب العقلي، فهذا الاستخدام في مجال الطب) اما الاستخدام الثالث ( بمعنى الغربة بين

البشر، يعنى فقدان الالفة او حدوث انفصال في العلاقات الودية بين الاشخاص) ، وفي مجال الفن هناك نوع من الاغتراب قد يشعر به الفنان، فالاغتراب عن الذات الذي يعنى انفصال الفنان عن ذاته، فيمكن ان يصطنع الفنان ذاتا زائفة لنفسه من فعل وتأثير ضغوط المجتمع، واعرافه وتقاليده. كذلك اغتراب الفنان عن مجتمعه فالفنان عندما يشعر بعدم الميل الى اقامة الصلات الاجتماعية و العلاقات الودية مع الآخرين فيرفض قيم المجتمع واعرافه الامر الذي يعرف بالعزلة الاجتماعية، فيحس بشعور الانفصال عن الآخرين وعدم الانتماء واللامبالاه والشعور بالوحدة والانفصال عن النفس والمجتمع. فالفنان عندما يعامل كما لو كان شيئا، وكأنه تحول الى موضوع، وفقد هويته اي شخصيته، يشعر حينها بالاغتراب، أضف الى ذلك ان اتساع الهوة بين اهداف المجتمعات المادية، ووسيلة الافراد للوصول الى هذه الاهداف، التي يتبعها تبدل في القيم والمعايير المجتمعية هي أحد الابعاد الاساسية لإغتراب الفنان. وبالتالي فإن الحياة تمضي بغير معنى ويتولد الاحساس بأن الحياة في حقيقتها تافهة ، الامر الذي يدفع الفنان الى البحث عن وجود القيمة لهذه الحياة فإذا ما غاب الاحساس بمعنى الحياة لدى الفنان اصبح بذلك مغتربا. لذا كان التمرد أمرا حتميا، فالتمرد هو أحد أبعاد الاغتراب الذي يظهر في سلوك الفنان ، فيتصف بالعداء والمرارة والاستياء لما عليه المجتمع من معايير و قيم. يولد ذلك الشعور بالبحث عن جماعات ذات قيمه، تمنحه هذا الانتماء الشعور بالهوية والاستقلالية.

" ويرى (ماي May ) ان الفنانين يحتضنون مجموعة من القيم ليست على وئام مع القيم السائدة في المجتمع مما يجعل الفنان في حالة من الغربة والقلق. ولكن هذه الغربة او الاغتراب يمثل احد العوامل الدافعية التي تؤدي الى الخلق الابداعي حيث يحقق الفنان المبدع قيمته الخاصة فيما يبتكر وينتج." فمثلا ( شكسبير ) في ( هملت ) رجل مغترب، فالبطل يسيطر عليه الاحساس الشامل بالاغتراب، حيث كان ينظر الى نفسه ورفاقه والمجتمع الذي يعيش فيه بكل الرفض و كثير من الازدراء. (شكسبير) ايضا كان مغتربا حيث كان يصارع في طريقة بصعوبة في مجتمعه ، وقد اسقط نفسه على (هاملت) الذي يمثل تجسيدا للإنسان المغترب عن كل ما حوله. كذلك (بتهوفن العظيم) يحس بأنه مغترب بدرجة تفوق الاحتمال. وقد أسهم صممه في زيادة احساسه بالاغتراب والعزلة، وكل معزوفاته تكشف عن ذلك الاحساس العميق بالاغتراب.

وبالنظر الى تاريخ الفن نجد ان أغلب المدارس الفنية التي ظهرت انما هي رد فعل للواقع الانساني المتأزم و المغترب. واغلب الحركات الفنية كانت حركات ثورية لأن اغلبها لم تهتم بالشكل فقط وانما كان وراءها مضمون أيضا.

والفن الحديث لا يختلف في دوافعه عن الفن القديم لأن الفن هو البحث عن الذات، فالفنان يبحث عن ذاته وعن طريق انتاج المادة الفنية، ومن وجهة نظر ( هيلبيك ) أن الفن الحديث أكثر تجريدا وذلك لأن الفنان المعاصر اكثر اغترابا، ويقصد بذلك اغترابه عن ذاته، فهو يرى ان الفنان التجريدي يلجأ الى التجريد الذي ينشأ نتيجة لانفصاله عن نفسه عن دوافعه وميوله وحاجاته، والتجريد وسيلة يستطيع من خلالها تجاوز اغترابه وتحقيق ذاته، وان الفن الحديث المعاصر بجميع اشكاله انما هو رده فعل للشعور المتزايد بالاغتراب والعزلة، فالفنان اليوم يعبر من خلال ابداعاته الفنية عن موقفه الوجودي وموقفه من نفسه وقيمه وموقفه من العالم الذي يعيش فيه.

والعكس غير صحيح فلأن الفنان تتوافر لديه القدرات الابداعية في الخلق، فالدوافع و الاغتراب وحده لا يكفي، فهو لا يقفز بالابله الى مستوى الابداع، و لا يجعل المعنوه مبدعا او فنانا لان العبقرية الابداعية تعتمد على قدرات خاصة وموهبة. أما الدافع فهو الذي يحول هذه المواهب و القدرات الى انجازات باهرة تتمثل في الانتاج الفني.

ومما لاشك فيه ان الاعترافات الصريحة للكثير من الفنانين بما يعانونه من قلق واغتراب يمثل احد المؤشرات الى أن هناك ارتباط من نوع ما بين الاغتراب والابداع لدى الفنان. أما الاغتراب النفسي لدى الفنان فهو اغتراب ذو نظرة ايجابية فالعزلة التي يفرضها الفنان على نفسه في معظم الاحيان، هي عزله إرادية ذات طابع ايجابي اذ تتيح هذه العزلة للفنان العودة الى ذاته وتحديد هويته في ضوء ما اكتسبه من خبرات وتضمنيات اي العودة الى الداخل، وذلك حيث يخلق الانتاج الابداعي في خياله ثم يعود الى الواقع عبر التجسيد المادي لهذا العمل الفني و ما يلقاه الفنان من تقدير واستحسان وبذلك يتجاوز الفنان اغترابه ويحقق ذاته. إن الفنان يحقق ذاته من خلال الناتج الابداعي ( العمل الفني) وهو سبيله للخلاص من اغترابه، فالفنان يتميز بالحاجة القوية الى الانجاز بما يقوم به من اعمال و انجازات تعتبر بالنسبة له أهم اهتماماته الى الحد الذي يجعله يستغرق فيه تماما متناسيا بذلك حاجاته الاساسية ككائن بشري من راحة و طعام.... وغيرها من احاجات.

ويربط فان جوخ بين ممارساته وانجازاته في الفن وبين اكتشاف المعنى الحقيقي لحياته قائلا: " لقد كنت أعمل طوال هذه الشهور المريرة لتحقيق هدف ما... أحاول أن استخلص الغرض و المعنى الحقيقيين لحياتي، ولكني لم ادركها... أما وقد أدركت الآن فلن تهن عزيمة ثانية. هل تدرك معنى هذا؟!... بعد كل هذه السنين الضائعة اكتشفت أخيرا.... سأكون فنانا".

و لا تكتمل المتعة لدى الفنان الا بتلقي الآخر للإنتاج الفني ( العمل الفني) وتقبله... فهناك مازال بعض من الاغتراب بالنسبة للفنان والمتلقي، فعندما يزول هذا الاغتراب ويبقى العمل على الاستحسان والقبول، يتحقق التلاقي و التواصل بعد التنافر والاغتراب. فهناك جانبان مهمان اولها ان يلاقي عمل الفنان الاعتراف و ذلك بالتقدير الملائم، والجانب الآخر ( وهو الذي بالفعل يشعرونا بالاغتراب كفنانيين) وهو الاحتضان الابداعي كفاءة نادرة!! ( ولا اقصد هنا الشهرة!) وكلا الجانبين يتفاعلا ويؤثران على بعضهما الآخر.

وتظهر أهمية الاعتراف عند فان جوخ حين قال: " قد تحترق روضا ولا يهرع أحد لينعم بدفئها....وأنا انظر الى ما ينبغي عمله ايتحتم على المرء أن يلازم هذه النار التي تضطرم في داخله وان ينتظر صابرا الساعة التي يجيء معها شخص آخر و يجلس بقربها".

فكما نلاحظ أن الفنان وحده هو القادر على تخريج دوافعه ورغباته لا شعوريا الى مضامين واشكال فنية تتضمن أعدارا و ملابسات تبرز الخطايا، ومع اقتناع الجمهور واستحسانه لهذه الاعمال، يحصل على ما يبتغيه من تبرئه و غفران .